الرهان

لانطون تشيكوف الروسي

(١٨٦٠ — ١٩٠٤)

يعدُّ تشيكوف من اعظم كتَّاب الاقاصيص في العالم . ولد سنة ١٨٦٠ في جنوب روسيا . ودرس فنّ الطب في جامعة موسكو ونال شهادة طبيب سنة ١٨٨٤ . ولكنَّهُ لم يزاول هذه الصناعة قط بل تفرَّغ للكتابة . وقد وجد في العلوم التي تضلَّع منها في الجامعة خير معوان على البراعة في فنّ البراعة . فبلغ من معرفة اطوار الناس وعاداتهم مبلغاً فائق الوصف ومنقطع النظير . واجاد تمثيلها في قصصهِ الكثيرة إجادة خلبت أذهان القرَّاء ودلَّت على ما أُوتيهُ من قوَّة البلاغة وشدة الذكاء . وقد توفي في اليوم الثاني من شهر يوليو سنة ١٩٠٤ ودُفن في موسكو

وفي القصة الآتية بيان ما يؤدّي اليهِ الرهان البسيط من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة

القصة

في احدى ليالي الخريف المظلمة اخذ المكي الصيرفيُّ يتمشَّى في مكتبهِ جيئةً وذهاباً . وقد استعاد في ذهنهِ ذكر الليلة الساهرة التي احياها في بيتهِ منذ خمس عشرة سنة ودعا اليها نخبة اهل الفضل والجاه . وكان من جملة الامور التي بحثوا فيها وجعلوها موضوع محرهم عقوبة القتل او الحكم على القاتل بالموت . فاستهجن معظمهم هذه العقوبة وعدّوها منافية للدين والادب وقالوا بوجوب الغائها واستبدال السجن المؤبد بها . فتصدَّى لهم الصيرفيُّ ربُّ الدعوة وقال :

« لستُ بموافق على هذا الرأي . ومع اني لم اجرّب الحكم بالموت ولا اختبرتُ السجن المؤبّد أرى ورأيي قرن الصواب ان العقوبة الاولى [الحكم بالموت] اقرب من العقوبة الثانية [السجن المؤبد] الى مراعاة حرمة الدين وقواعد الادب . لان الموت يصرم حبل الحياة باسرع ما يستطاع . واما السجن المؤبد فهو عبارة عن قتل تدريجيّ . فايّ القاتلين ارأف وأرفق ؟ أذلك الذي ينزع الحياة في بضع ثوانٍ ام الذي يستنزفها كلّ يوم بلا انقطاع مدة سنين طويلة ؟ »

فقال واحد من المدعوين :

« عندي ان الجريمتين كلتيهما مخالفتان للدين ومغايرتان للادب . لان غرضهما واحد وهو إطفاء شعلة الحياة . والحكومة اية كانت ليست الله . فلا يحقُّ لها اخذ مالا تستطيع ردَّهُ اذا شاءت »

وكان بينهم محامٍ في الثانية والعشرين من العمر . وقد سئل ان يبدي رأيهُ في هذه المسألة فأجاب :

« أرى ان العقوبتين كلتيهما فظيعتان ومناقضتان لقواعد الادب . ولكنني لو خُيرت فيهما لاخترتُ من فوري الثانية (السجن المؤبد) وفضلتها على الاولى . لانَّ الحياة ، على اي وجهٍ كان ، خير من عدمها »

وحمي وطيس الحوار في هذا الموضوع واتسعت مسافة الخلف بين المتحاورين . وكان ربُّ الدعوة في ذلك الحين في عنفوان الشباب وعلى جانب عظيم من الزهق وسرعة الغضب . فضرب المائدة بيدهِ والتفت الى المحامي وقال لهُ بلسان المغيظ المحنق : —

« ذلك كذب ومهتان . واني اراهنك على مليوني ريال ان استطعتَ الصبر على الإقامة في السجن خمس سنوات فقط »

— « اذا كنتَ في قولك هذا جادًّا غير هازلٍ فاني مستعدٌّ للمراهنة لا على خمس سنين فقط بل على خمس عشرة سنة

فصاح الصيرفيُّ :

« خمس عشرة سنة ! اتفقنا . اشهدوا ايها السادة »

وقال لهُ المحامي :

« نعم اتفقنا على مسمع ومرأى من هؤلاء السادة . فانت تُقامر بمليوني الريال وأنا اخاطر بحياتي »

وهكذا تمَّ ذلك الرهان الغريب الباعث على الهزء والسخرية . وكان الصيرفيُّ في ذلك الحين من ارباب الثروة الكبيرة واصحاب الملايين الكثيرة . لكنهُ كان تقتاً شكساً سريع التقلُّب . وفيما هم جالسون لتناول العشاء قال للمحامي :

« خلِّ عنك الغرور ايها الشابّ وارعوِ عن غيِّك قبل فوات الوقت . لا يهمني دفع مليوني ريال . ولكن من المحقق عندي انك لا تستطيع الإقامة في السجن

اكثر من ثلث او اربع سنوات تذهب من حياتك سدًى . ولا تنس ايُّها الفتى المتكود الحظ ان السجن الاختياريّ اشدّ وطأة على النفس من السجن الاضطراريّ . ولقد أعذر من أنذر والسلام »

***

والآن كان هذا الصيرفيُّ يروح ويجيء في مكتبه ذاكراً كل ما حدث في تلك الليلة وقائلاً في نفسه :

« لماذا أقدمتُ على هذا الرهان ؟ وما الفائدة منهُ ؟ هذا المحامي يخسر خمس عشرة سنة من حياته وانا اضيع مليوني ريال باطلاً . وهل في هذا وذاك ما يقنع الناس بان العقوبة بالموت شرٌّ او خير من عقاب السجن المؤبد ؟ لا . لا ؟ هذا كلُّهُ باطلٌ وغرور. أتيتهُ مندفعاً بعامل الزهو والخيلاء واتاهُ المحامي منساقاً بشهوة الطمع وحبّ المال »

ثم تذكّر ما حدث بعد تلك الليلة . اذ ترتّب على المحامي ان يقيم في غرفة في حديقة بيت الصيرفيّ تحت اشدّ مراقبة ويكون في اثناء مدة سجنه محروماً حتى حقّ اجتياز العتبة لمشاهدة احد من الناس او سماع الاصوات البشرية او تسلّم الرسائل والصحف . وكان مأذوناً لهُ ان يكون عندهُ آلة موسيقية وان يطالع الكتب ويكتب ما شاء من الرسائل ويشرب خمراً ويدخن تبغاً . وبموجب الاتفاق كان يحق لهُ ان يكتب على ورقة ما يحتاج اليه مما سبق ذكرهُ ويلقيها من نافذة صغيرة ، انشئت في غرفته لهذه الغاية ، من غير ان يفوه بكلمة . وكان في الاتفاق نصٌّ صريح على اتخاذ الوسائط الضرورية لاستيفاء شروط السجن كلها في هذه الغرفة . وتحتم على المحامي ان يقيم محبوساً فيها خمس عشرة سنة كاملة من منتصف اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٧٠ الى منتصفه سنة ١٨٨٥ . واقل محاولة منهُ للإخلال في الشروط المتفق عليها والخروج من سجنه ولو دقيقة واحدة قبل الوقت المعين تسوّغ للصيرفيّ نقض العهد وعدم دفع مليوني الريال

***

ومن مطالعة المذكرات القصيرة التي كان المحامي يكتبها ويلقي بها من نافذة مجسه اتضح انهُ قضى سنتهُ الاولى في مالا مزيد عليه من السآمة والضجر. وكان صوت

إيقاعه على البيانو يُسمع نهاراً وليلاً بلا انقطاع . وقد أبى قبول الخمر والتبغ في هذه السنة ، قائلاً عنها في مذكرته « ان رشف المسكر يهيج الشهوات التي هي اكبر اعداء السجين . ولا شيء ادعى الى التبرُّم والانزعاج من شرب الراح على انفراد بلا نديم ولا سمير . وكفى التبغ ضرراً ان دخانهُ يفسد هواء الغرفة ويجعلهُ غير صالح للاستنشاق » . وكانت الكتب التي أُرسلت اليهِ في هذه السنة مما يصلح للتفكهة والتسلية وقضاء اوقات الفراغ كالقصص على اختلاف انواعها

وفي السنة الثانية انقطع صوت البيانو وبلغ المحامي في طلب كتب الادب . وفي السنة الخامسة استأنف الايقاع على البيانو وارسل يطلب الخمر . وروى الذين راقبوهُ في هذه السنة انهُ اقتصر فيها على قضاء وقتهِ في الاكل والشرب والاضطجاع في سريرهِ . وكان يكثر من التثاؤب ومعاتبة نفسهِ بلسان الفيظ والحنق . اما الكتب فهجرها ولم يمل الى مطالعتها . وكان يجلس في بعض الليالي للكتابة ويقضي فيها وقتاً طويلاً وفي الصباح يمزّق كلَّ ما كتبهُ . وسمعوهُ غير مرة يُعول ويبكي

وفي منتصف السنة السادسة شرع يبذل اقصى الجهد في تعلّم اللغات والفلسفة والتاريخ وابدى في ذلك رغبة تفوق الوصف حتى شغل وقت الصيرفيّ كلهُ باعداد الكتب التي احتاج اليها . وفي اربع سنين بلغ عددها ، ست مئة مجلّد . وفي ذات يوم بعث الى الصيرفي بكتاب يقول لهُ فيهِ : « سجّاني العزيز . اني اكتب اليك هذه الاسطر في ست لغات . فارجو التفضل بعرضها على من يعرفون هذه اللغات . وان لم يجدوا فيها غلطة قطّ فتفضل باطلاق بندقية في الحديقة ومن صوتها اعلم ان تعبي لم يذهب باطلاً . فالنوابغ في جميع الازمنة والامكنة تكلموا بألسنة مختلفة لكنَّ نار العبقرية التي تأججت في صدورهم كانت واحدة . آه . ليتك تستطيع ان تعلم مبلغ النشوة التي أنعم بها الآن بعدما تمكنت من معرفة لغاتهم وفهم افكارهم ! » وقد اجاب الصيرفيُّ طلبهُ وامر باطلاق بندقية في الحديقة

وبعد السنة العاشرة جلس المحامي كالصنم امام مائدة الكتابة وأمعن في مطالعة العهد الجديد من الكتاب المقدس . فتعجّب الصيرفيُّ من رجل يعي في ذهنهِ خلاصة العلوم والمعارف التي جمعها في اربع سنوات من قراءة ست مئة مجلّد ثم يقضي بعد ذلك نحو سنة في مطالعة كتاب صغير الحجم سهل الفهم كالعهد الجديد . ولم يتمّ بعد ذلك

ان استبدل بالعهد الجديد تاريخ الاديان وعلم الفقه (اللاهوت)

***

وفي السنتين الاخيرتين من سجنه كان يطالع ما تقع يدهُ عليه إتفاقاً من الكتب بلا تحرٍّ ولا اختيار . ولما اوشكت مدة سجنه ان تنتهي قال الصيرفيُّ في نفسه :

« في الساعة الثانية عشرة غداً يُقضى الامر ويحق للمحامي ان يخرج من سجنه . وبموجب الاتفاق يترتب عليَّ ان ادفع اليه مليوني ريال . واذا دفعت هذا المبلغ الباهظ بتُّ فقيراً معدماً لا املك درهماً »

كان منذ خمس عشرة سنة ربَّ ملايين كثيرة . ولكنه كان في هذه المدة قد انبعث في المضاربات والمراهنات وخسر فيها مقادير كبيرة من المال واصبح عرضة للهواجس والمخاوف

وعند افتكاره بدنوّ الساعة الرهيبة تبرّم وتململ وقبض رأسهُ بين يديه وقال بلهجة القانط اليائس :

« يا لهُ من رهان مشؤوم ملعون ! وهذا المحامي القليل الزنيم لماذا لم يمت ويرحني من هذا العذاب الاليم ؟ عما قليل يزنّ مني آخر درهم املكهُ فيتزوّج ويعيش في رغد ورخاء وسرور وصفاء ويغادرني افقر من ابن المذلّق المجرَّع غصص الضنك والشقاء لا — لا — إن هذا فوق طاقتي ولا يسعني احتمالهُ . وخير وسيلة للتخلص من هذا الضيق الخانق ان يموت المحامي . اذن لا بدَّ من موته »

وكانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل والصيرفيُّ حليف سهاد لم تذق فيه عيناه طعم الرقاد . وكان ظلُّ السكوت مخيماً على بيته وجميع من فيه غارقون في لجة الكرى . فتناول مفتاح الباب المقفل منذ خمس عشرة سنة ولبس معطفهُ وخرج . وكان البرد قارساً والظلام داماساً . فسرى في الحديقة متلمساً طريقهُ بيديه كالاعمى حتى وصل الى جناحها حيث غرفة السجين وأهاب بالحارس مرتين فلم يكن من مجيب لانه كان متثقلاً بنوم عميق في المطبخ . ولما وصل الى باب الغرفة أشعل عود ثقاب ونظر فرأى الختم باقياً عليه كما كان منذ يوم إقفاله . وأطلَّ من النافذة الصغيرة وعلى ضياء شمعة ضئيل ابصر المحامي جالساً على كرسي بجانب المائدة وظهرهُ الى النافذة وشعر رأسه منسدلٌ على كتفيه وجانبيه والكتب منثورة حولهُ

فانتظر خمس دقائق والسجين باقٍ ساكتاً لا يُبدي حراكاً. لانهُ كان قد ارتاض في هذه السنين الطويلة على جلوس خالٍ من الحركة كانهُ فيهِ قطعة من جماد. ونقر الصيرفيُّ باصبعهِ على زجاج النافذة فلم يسمع جواباً ولا رأى في السجين اقلَّ حركة. واذ ذاك عمد الى الباب ففك حتهُ وادار المفتاح فيهِ فارتفع لانفتاحهِ صريف ظنهُ كافياً لتنبيهِ المحامي ان كان غافلاً او لايقاظهِ ان كان نائماً ولكنهُ ما لبث ان رأى ظنهُ في غير محلهِ وصحت عزيمتهُ على الدخول

دخل فرأى بجانب المائدة رجلاً ليس كغيرهِ من الرجال. ذا جسد هزيل نحيل لم يبق منهُ سوى عظم ذاوٍ ذابل عليهِ جلد متقبض متكش وهو اصفر الوجه غائر الخدين اعجف اليدين مقوَّس الظهر وقد وخط الشيب شعر رأسهِ ولحيتهِ الجعد الطويل وامامهُ صحيفة مكتوبة بخطٍّ دقيق انيق. فحدّق الصيرفيُّ اليهِ وقال في نفسهِ: —

« انهُ نائم نوماً عميقاً. ولعلهُ يرى مليوني الريال في حلمهِ وينعم بعدّها — فما عليَّ سوى ان احملهُ واضعهُ في فراشهِ واُغمي وجههُ بالمخدة فتخمد بقية انفاسهِ. ولا اوجس خوف اتهامي بقتلهِ لان الفتك بهِ على هذا الوجه سيخفى حتى على امهر الاطباء. ولكنني اروم ان اطلع اولاً على ما كتبهُ »

ثم تناول الصحيفة وتلا فيها ما يأتي: —

« غداً الساعة الثانية عشرة تُفكُّ قيود سجني وتردُّ اليَّ حرية الخروج من حبسي والاختلاط بني جنسي. ولكنني قبل مغادرة هذه الغرفة ومشاهدة ضياء الشمس ارى من الضروري أن اخاطبكم يا اهل العالم بهذه الكلمات. فبضمير صالح نقيّ وامام الله الذي يراني اُصرّح لكم اني احتقر الحرية والحياة والصحة وكل ما تفاخر كتبكم بعدّهِ من بركات هذا العالم

« خمس عشرة سنة قضيتها في الدرس الدقيق والتأمل العميق في هذه الحياة الدنيا. لم اني لم ارَ فيها الارض ولا الناس. ولكني في كتبكم حصلت على كلّ ما يستطاب اقتطافهُ ويستعذب ارتشافهُ ونلت كل ما تطرب الآذان بسماعهِ وتقرّ العيون بمشاهدتهِ ووقفت على اسرار الطبيعة وخفايا العلوم والفنون وجولت في الارض براً وبحراً وكشفت المجاهل في مفاوز الارض وما كان منها تحت الماء وفوق الهواء وعرفت ما اغاصت معرفتهُ حتى على كبار الفلاسفة والحكماء. في كتبكم صعدت الى الاعالي وهبطت

الى الاعماق واتيت ما شئت من خوارق الآيات والمعجزات واضرمت النار في مدن غادرتها رماداً ونشرت ديانات جديدة جعلت الناس كلهم لها عبّاداً . ومن كتبكم هذه جمعت حكمة الاولين والآخرين فصرت احكم السان تحت الشمس

« والآن اقول اني ازدري كتبكم هذه واحتقر الحكمة العالية والبركات الارضية. فكل شيء في العالم باطل — ظلهُ زائل ولونهُ حائل . وهو احيل من ضباب واخدع من سراب . أراكم تزهون وتفتخرون بما أوتيتم من حكمة وثروة وجاه وجمال ولكن هذه كلها وغيرها من اباطيل الارض لا تدفع عنكم يد الموت حين تمتدُّ اليكم وتمدُّ سطار الفناء عليكم

« انكم في غرور وضلال بل في جنون ما بعدهُ من جنون . تؤثرون الغيَّ على الهدى والكذب على الصدق والحرام على الحلال والسماجة على الجمال وتستبدلون الخبيث بالطيب والطالح بالصالح

« ولكي أريكم بالفعل شدة احتقاري لما تعلقون قلوبكم عليهِ وتوجهون كل اهتمامكم في هذه الحياة اليهِ ارفض المليونين اللذين راهنت عليهما والآن انظر اليهما بعين الازدراء . ولكي احول دون استحقاقي لهما عزمتُ على الخروج من سجني قبل الوقت المعيَّن بخمس دقائق فأخلَّ بشروط الاتفاق واحرم المبلغ المتفق عليهِ »

***

ولما فرغ الصيرفيّ من تلاوة الصحيفة وضعها على المائدة وقبَّل المحامي في رأسهِ واوغل في البكاء والنحيب . وما ابطأ ان غادر الغرفة راجعاً الى بيتهِ وقلبهُ مثقلٌ بالهمّ ومفعمٌ بالشعور العميق بفرط سفالتهِ ونذالتهِ. واضطجع في سريرهِ يحاول النوم فلم يستطعهُ وقضى بقية ليلهِ في اكتئاب وانتحاب نادماً على ما اتاهُ من اعمال الخساسة والدناءة. وقبيل الفجر ران عليهِ الكرى فغرق في لجتهِ الى ظهر اليوم التالي حين جاءهُ الحارس مهرولاً واخبرهُ بانهُ رأى الرجل المقيم في الغرفة التي في جناح الحديقة وقد وثب من النافذة الى الحديقة ثم خرج من البوابة وذهب . فخفَّ الصيرفيّ الى جناح الحديقة ومعهُ خدامهُ وقرَّر فرار السجين بشهادة الخدَّام . ولكي يجتنب قال الناس وقيلهم في هذا الموضوع اخذ الصحيفة التي كانت لا تزال على المائدة واقفل عليها في خزانتهِ

ترجمة : اسعد خليل داغر